

الفصل الثانى

من هو الطبيب؟

كان الطبيب يدعى سونو باللغة المصرية القديمة ويطلق هذا المسمى على الأطباء الباطنيين، ويتدرج السونو فى الوظيفة من طبيب إلى مشرف على الأطباء، ثم كبير الأطباء، ولفظ سونو يعنى المعاناة من الألم، ويطلق على بعض السونو لقب كاتب، حيث كان يستطيع قراءة النصوص الطبية المختلفة، والممارسة تمنحه الخبرة العملية الكافية واللازمة للعلاج.



أحد الأطباء فى مصر القديمة

أما طائفة الكهنة، فهم سخمت، وهم الجراحون، بينما ساو هم الأطباء الروحانيون، وسخمت تعنى من يمكنه إبعاد الأرواح الشريرة أى الأمراض، وساو تعنى الحارس أو الحامى.

ويمثل التدرج الوظيفى للأطباء فى هيكله ما هو متبع للآن، فالهرم الوظيفى يبدأ بكبير الأطباء، السمنو، يليه الأطباء أو الإيمى سمنو، ثم المسجل أو سمنو سمنو، ثم المستشار شد سمنو وأخيرا المتخصص كل فى مجاله.

«لقد مرت سبعة أيام منذ أن رأيت حبى. وزحف المرض فى

أوصالى، وثقلت أعضائى ولا أشعر بجسدى. وإذا عادنى الأطباء فلن يجدى دواؤهم نفعاً، وليس لدى الكهنة علاج لى. فلا يمكن تشخيص مرضى، فإن حبى أجدى لى من الدواء، فأهميته لدى أعظم من كل كتب الطب» قصيدة حب عام ١٥٠٠ ق. م.

وتلخص هذه القصيدة ما عرف عن الطب والأطباء آنذاك، فهناك الطبيب المعالج بالأدوية، والكاهن المداوى للنفس، وقد حمل بعضهم لقب «طبيب القصر، مشرف على أطباء القصر، طبيب عيون القصر، أخصائى المعدة، ومن يفهم فى السوائل الداخلية للجسم وحامى العانة... إلخ» وأهم ما تبرزه هذه القصيدة هى كتب الطب التى هى مرجع كل طبيب ممارس يستقى منه علاجاته المختلفة.

وعرف كهنة سخمت بتخصصهم فى مجال الجراحة كما يذكر أحد هؤلاء الكهنة من الأسرة الحادية عشرة: «لقد كنت قويا وماهرا فى المهنة أضع يدي على المريض فأتعرف على مرضه، لقد كنت ماهرا بيدي».

ويعين الأطباء ويتقاضون رواتبهم من قبل الدولة ، وتتم معالجة كل من يحتاج إلى العلاج مجاناً ، ويتقاضى الطبيب مقابلاً عيونه نظير خدماته ، وهو نظام رعاية صحية متقدم ومنظم يتطابق مع ما هو متبع الآن في هذا المجال.



تعويذة للحماية
كان يلجأ لها
المصري القديم

إلى أن تطورت الأمور وأصبح الأطباء يمارسون عملهم مقابل أجر يدفعه المريض ، مما جعل طبقة الأطباء ، بفئاتها الثلاث ، من الأغنياء كما تدل عليه مقابرهم ومحتوياتها من أثاث جنزى وأدوات الحياة اليومية التي تصاحبهم بعد الموت.

ويؤدى التدرج الوظيفى الذى يبدأ بالطبيب أو السونو للتصاعق إلى وظيفة كبير الأطباء مثل إوتى ، الدولة الحديثة ، القرن ١٦ ق. م الذى كان كبير أطباء مصر العليا ومصر السفلى.



«إوتى» كبير أطباء
الدولة الحديثة

يرجع هذا التمثال الذى يمثل سخمت ، رمز التطبيب والعناية بالمرضى ، للدولة الحديثة ، الأسرة الثامنة عشرة. سخمت تجسيد رمزى للقدره على الشفاء من الأمراض ، فقد كان العلم والعقيدة متداخلين ويسيران معا فى كل تفاصيل حياة المصرى القديم ، وقد عرفت سخمت بتعطشها للدماء طبقاً للأسطورة.



يتلقى الطبيب الهدايا مقابل خدماته الطبية

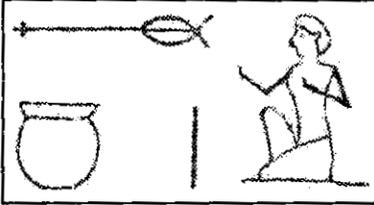
ومنح الأطباء العديد من الألقاب منها المشرف على أسرار الصحة في دار تحوت أو متخصص العيون في القصر... إلخ وعادة ما يلحق أفضل الأطباء بالبلاط الملكي حيث يجزل لهم العطاء مقابل خدماتهم وتقدم لهم الهدايا المتعددة مقابل شفاء المريض وكان كل طبيب متخصصا في فرع واحد فقط من



بعض الأدوات الجراحية القديمة بالمتحف المصري بالقاهرة

الطب، فهناك طبيب الأسنان، وكذلك الجراح، وطبيب العيون. والأنف والأذن والحنجرة. والفم وآلام المعدة، وحتى الحقنة الشرجية كانت لها المتخصص الممارس لها طبقا لما ورد في بردية شستريبتى.

ويحظى الطبيب المتخصص باللقب المناسب لما يؤديه من عمل كما هو مدون على جدران مقابر الأطباء، فكل منهم له تخصصه ولقبه. ويمائل السونو الممارس العام حاليا، فهو مكلف بعلاج الأسنان أحيانا، ويمارس الطب البيطري عند الحاجة، ويهتم السونو بالبشرة والجلد، فيصف الدهانات اللازمة ويمارس عمله طبقا لمبدأ التجربة والخطأ، ويكتسب مهارته من خبرة من سبقوه وممارسته العملية. ومن المتوقع من الممارس العام المساهمة في القضاء على الزواحف والقوارض حسبما تقتضيه الحالة.

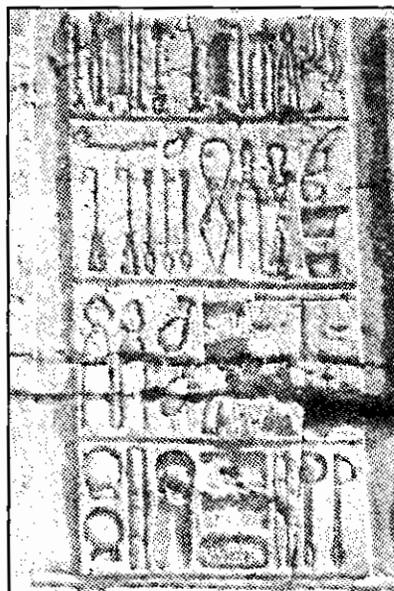
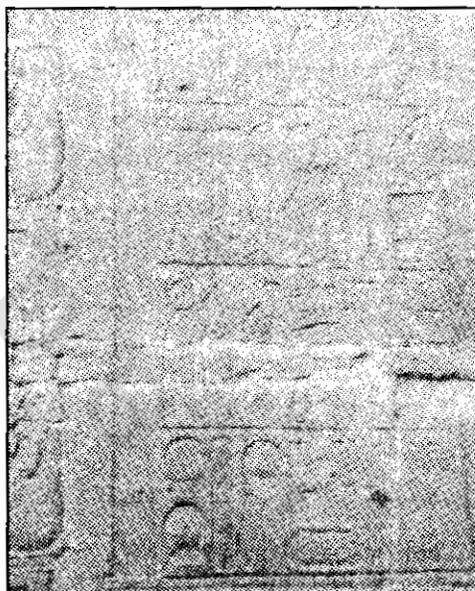


كلمة سونو باللغة المصرية القديمة

ويعتبر دور الطبيب على درجة كبيرة من الأهمية

خاصة في مجتمع الحرفيين وبناء المنشآت الذين يتعرضون للكثير من الحوادث، فالسونو هو الممارس الشعبي للأعمال الطبية المتنوعة.

ويبدأ الطبيب المصري القديم تعلمه بالقراءة والكتابة، ثم يتوجه لأحد المعاهد التعليمية لاكتساب مهارات طبية على أيدي أطباء سبقوه في هذا المجال.



بعض الأدوات الجراحية كما ظهرت على جدران معبد كوم أمبو

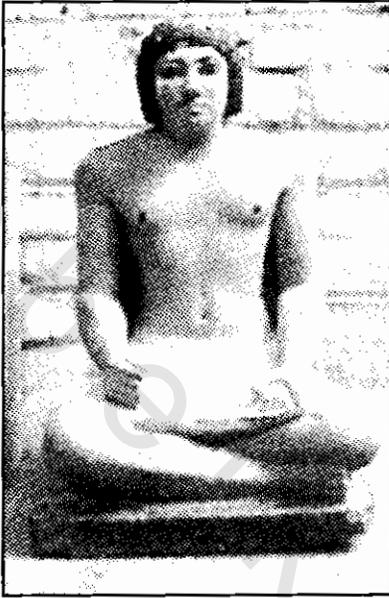
وانتشرت المعاهد التعليمية أو المدارس منذ الأسرة الأولى، ٣١٥٠ ق. م، الدولة العتيقة، ومن أهمها مدرسة أمحوتب في العاصمة منف، ومدرسة تخريج طبيبات الولادة في مدينة سايس بالدلتا، ومدرسة الجراحة في طيبة، ولكن أشهرهم كان معهد مدينة أون الطبي، عين شمس، حيث يتلقى الطبيب مبادئ طبية وتدريب على الممارسة العامة، ثم التخصص.

وكانت هذه المعاهد تدعى بيت الحياة أو بر عنخ، ويعد كتاب الطب التطبيقي وكتاب التشريح الذي قام بإعدادهما ابن الملك مينا، الأسرة الأولى، القرن ٣١ ق. م، من أقدم المراجع الطبية المحفوظة في مكتبات هذه المدارس.

وكان على الطبيب تطبيق تعاليم الأولين بدقة لا يحيد عنها فقد سجل ديودور هذه الملاحظة عن الطب في مصر القديمة: «كانوا يمارسون عملهم طبقا لقانون مدون وضعه خلال الأزمنة السابقة أطباء أكفاء»، كما ذكر أنه: «خلال حملاتهم العسكرية أو تواجدهم في الريف كانوا يحصلون على العلاج مجانا».

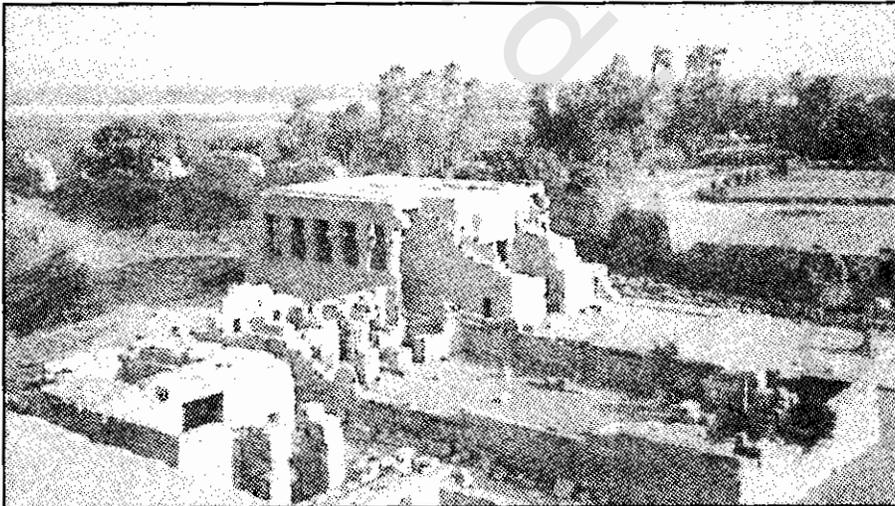
ولكن يبدو أن هذا النظام المجاني يطبق فقط على العاملين في المواقع الإنشائية مثل منطقة دير المدينة والأهرامات على سبيل المثال، بينما يدفع الأغنياء مقابل عيניה لخدمات الطبيب.

ويصاحب الطبيب عامة مساعده الذين يتولون مهمة حمل أدواته والمعدات اللازمة لإعداد الدواء.



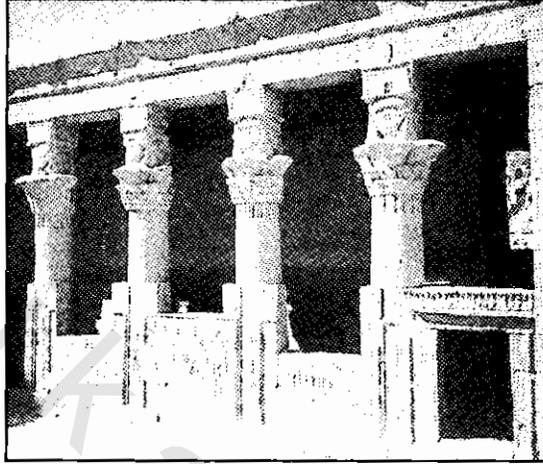
هذا التمثال من مقتنيات
المتحف المصرى بالقاهرة

يبدأ الطبيب حياته العملية بتعلم القراءة والكتابة ثم التوجه إلى المدارس التعليمية الطبية حيث يتدرب على التطبيب والمداواة مع الرجوع لما هو مدون في كتب الأجداد من الأطباء الذين دونوا حصيلة تجاربهم ودراساتهم العملية على الجسم البشرى. وتلحق المعاهد الطبية التعليمية عادة بالمعابد حيث يمارس الأطباء عملهم ولهم نفس منزلة الكهنة، كما تلحق بيوت الولادة أو الماميزى بالمعابد أيضا خلال العصر البطلمى، ولكنها تخدم غرضا آخر مغايرا لعملية الولادة الحقيقية، فلم يكن الماميزى أو بيت الولادة مخصصا للولادة العادية، بل كان يحمل معنى رمزيا يمثل الولادة الإلهية التى تصبغ على الفرعون المولود صفة الشرعية وتؤكد نسبه الإلهى، وبالتالي شرعية حكمه وأحقيته فى عرش مصر، وكان الملوك يلجئون إلى هذه الممارسة لكسب أحقيتهم على عرش مصر كما فعلت الملكة حتشبسوت.



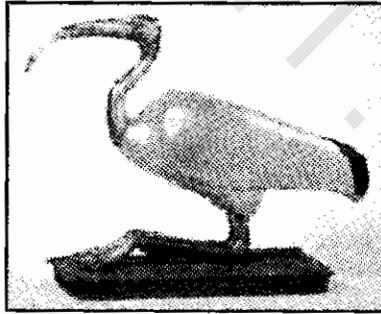
الماميزى الملحق بمعبد دندرة

والحاق تلك المدارس بالمعبد لا يعنى بالضرورة دراسة الروحانيات فقط، ولكن الطب يدرس مع العقيدة، فهما متصلان قديما وحديثا، إذ إن جامعة الأزهر حاليا تدرس الطب في إحدى كلياتها العملية انطلاقا من نفس المبدأ.



الماميزى معبد فيلة حيث سجلت على جدرانها الولادة الإلهية

ولم يقتصر دور الأطباء على الرجال فقط. فقد كان للنساء دورهن الهام فى العلاج والإشراف الطبي، وتعتبر بسيشت أول طبيبة ممارسة تولت مهمة الولادة وتعليم طبيبات متدربات فى مدرسة سايس الطبية وتخرجت الطبيبات لمزاولة المهنة على أسس علمية سليمة.



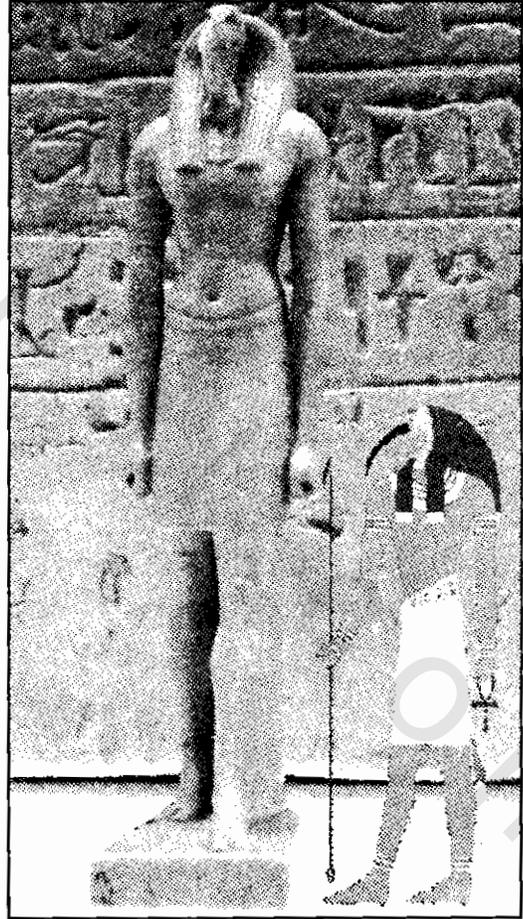
إمخوتب وتحوت وكلاهما رمزا للطب والمداواة



واعتبر إمحوتب، وزير وكبير مهندسى الملك زوسر، كبيرا للأطباء خلال الدولة القديمة، واعتبره اليونانيون إلها للطب وتوحد مع إسكليبيوس اليونانى.

ونسب بريستد محتوى بردية إدوين سميث لإمحوتب، ومن المرجح أن كلا من بردية برلين وجزء من بردية إيبرز وبردية سميث ما هى إلا نسخ أحدث لكتابات واستنتاجات إمحوتب الطبية. ومعنى كلمة إمحوتب هى «الآتى فى سلام» ويشارك تحوت إمحوتب فى الأهمية، فهو رمز المعرفة والطب والمداواة أيضا.

وكما تذكر الأساطير فإن تحوت هو الذى تولى مهمة مداواة عين حورس التى فقدتها خلال صراعه مع ست وتقطعت إلى أجزاء عديدة، ٦٤ جزءا، قام تحوت بتجميعها وإعادةها لمكانها الأصلي.



تحوت فى شكل الطائر أبو منجل أو بشكل آدمى يلبس قناعا يمثل رأس الطائر، ويمثل تحوت الرمز الذى علم البشر كيفية النظر إلى السماء وحساب الوقت والأيام إذ إن العام كان يمثل للمصرى حصيلة ٣٦٥ يوما ولم يغفل ربع اليوم. وطبقا لإحدى الأساطير، فإن تحوت هو من نشر الكتابة بين البشر فهو رسول البشر الذى يعلمهم ويدلهم على السلوك السليم. يعرض هذا التمثال بمتحف اللوفر.

ذكر المصري القديم الأساطير كى يقرب للذاكرة الجماعية الكثير من المفاهيم التى تستعصى على العامة، وذكر تحوت من خلال الأسطورة يفتح الأذهان للطب والطبيب والعلاج والأمل فى الشفاء، فقوة الأسطورة آنذاك تعادل مفهوم الإعلام الحديث، ومن هنا أهمية تناول التفاصيل بعد تحديد إطارها العام كى يتمكن قارئها من لمس كل الأبعاد والملابسات، فنحن بصدد شعب



الملك الفارسي دارا الذى خلف قمبيز فى الحكم وعرف برجاجة العقل واحترامه للثقافات المختلفة واهتم بالتعليم والزراعة والبناء

يتحسس طريقه نحو العلم والمعرفة ويشحذ ذكاه فى الاكتشاف والكشف للوصول إلى الحقيقة بهدف تحقيق سبل وظروف معيشية تخضع للإطار الأمثل. ولم تذكر أساطير المصري القديم تحوت فقط، ولكن إيزيس كان لها دورها فى الداواة من لدغات الثعبان وغيرها، فقد وضع المصري رموزه كى ترشد العامة للمفاهيم المختلفة.

واستمرت ممارسات الطبيب المصري عدة قرون قبل أن يتوارث الإغريق دراسات المصري القديم، ولا أدل على هذا من موقف الملك الفارسي دارا خلال القرن السادس ق. م الذى تمتع بحس عالٍ مكنه من معرفة قيمة ما يمتلكه البعض فى الدول التى احتلها، وهذا ما تؤكده النقوش المتواجدة على تمثال أحد الكهنة المعاصرين آنذاك ويدعى أوزاحور رسنت.

ويعرض تمثال هذا الكاهن فى الفاتيكان حاليا، وتعكس هذه النصوص بعضا من شؤون حياة هذا الكاهن المتصلة بالطب: «أوفدنى جلالة الملك دارا إلى مصر عندما كان جلالته فى (مدينة) إيلام ملكا عظيما

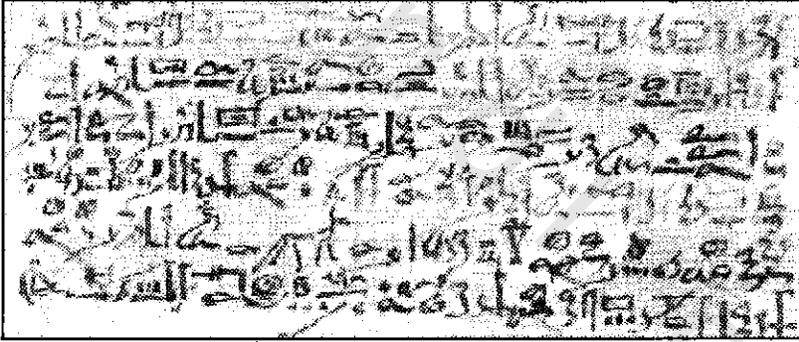
على كل قطر وأميرا كبيرا على مصر لإنشاء قاعة بيت الحياة وهو مبنى... بعد تهدمه «لقد قادنى البرابرة من بلد إلى آخر حتى أوصلونى إلى مصر كأمر جلالته».

وكان بيت الحياة كما ذكر سالفا هو المكان الذى يتلقى فيه دارس الطب العلم والتدريب اللازمين وبه خزائن تحتوى على الكتب والمراجع الطبية، وكان يقصده البعض للعلاج أيضا. واستمرت هذه الممارسات حتى العصر اليونانى الرومانى، ثم العصر الإسلامى فيما بعد وتشهد المبانى الخاصة بالماليك بالتحديد بعضا من هذه التطبيقات، فقد اهتموا بإنشاء مباني خاصة للعلاجات المتنوعة مثل أمراض العيون، خنقاها قلاوون بشارع المعز لدين الله وخلافه.

ويستطرد أوزاحور رسنت: «نفذت ما أمرنى به جلالته. اخترت الطلبة من بين أبناء علية القوم دون أبناء الفقراء. جعلتهم تحت إشراف رجال راشدين... من أجل طبيعة عملهم. لقد أمر جلالته أن يزود هؤلاء الطلبة بكل ما يلزمهم ليقوم كل منهم بعمله، فزودتهم بكل ما احتاجوا إليه وبكل الأدوات الواردة بالمخطوطات حتى عادت الحال بهذه المعاهد إلى ما كانت عليه قبل ذلك. «فعل جلالته هذا اعترافاً بفضل هذه المهنة ورغبة في إنقاذ حياة المرضى وإعلاء لشأن المعبودات ومعابدهم واقتصادياتهم لتستمر إقامة شعائر أعيادهم على مر الزمن».

وحمل أوزاحور رسنت، كاهن بمعبد نيت بصا الحجر أو سايس، لقب كبير الأطباء وزخرت المعاهد الطبية بالعديد من المراجع التي دون الطبيب المصرى فيها ملاحظاته وخلاصة تجاربه، وتحتوى هذه المراجع على تفاصيل دقيقة خاصة بالعمليات الجراحية التي مارسها الطبيب بكل كفاءة، كما دون الممارس للطب الباطنى وللجراحة سجلات يومية تحتوى على ملاحظاته ومتابعته للحالات المرضية وما يستجد بتأثير العلاج وكيفية تلافى الآثار لبعض الحالات.

وقد استهلكت بردية سميث بالتحديد بهذه الجملة: «يبدأ هذا الكتاب المتصل بتحضير الأدوية لعلاج كل أجزاء الجسم» بينما تبدأ بردية إيبرز بدعوات وابتهاالات لحماية الأطباء من عدوى بعض الأمراض التي قد تصيبهم أثناء الاحتكاك بالمرضى، والعناية الواجب توفيرها فى حالة إصابة الطبيب.



كتبت معظم البرديات بالخط الهيرواطيقى

وقد اهتم الفرعون، ملك مصر. وإدارته بالجهاز الطبى فى مصر القديمة التى تمتلك نظاما خاصا للفكر والممارسة الحياتية، فلم يُجَزَّئ المصرى النفس والروح والجسد فقط بل أقر وجودهم وأوجد لكل جانب سبل العلاج الخاصة به طبقا لرؤيا الطبيب التى توارثتها الأجيال. وتعتبر الحماية الإلهية ضرورية لرفع معنويات المريض، والأسلوب العملى للعلاج يكمل هذا الجانب الإيمانى لدى كل من الطبيب والمريض معا.

وحظي الجهاز الطبى وعلى رأسهم كبير الأطباء الملكى بكل التقدير، وكان للأطباء مكانتهم فى المجتمع التى تعادل مكانة الكهنة وكبار رجال الدولة. ولم يقتصر دور الطبيب على حدود مصر فقط، بل تخطاها ليصبح الإقبال على الممارس المصرى لدى بعض الدول له أهميته. ولا عجب، فالطبيب كان يمارس الفحص، وجس النبض، والنقر على المصاب، ومتابعة حالة القلب والأعراض المرضية، ثم يشخص الحالة ويحدد العلاج وامكانيته من عدمه أحيانا. وتحضير الدواء من المواد الطبيعية ذات الفاعلية السريعة عملا علميا خارقا فى هذا الزمان رفع من قيمة الطبيب لدى الأغلبية، وما زالت مكونات الكثير من العلاجات هى الأساس لبعض الأدوية الحديثة، ولكن بتحضيرات معملية صناعية ومواد غير طبيعية.



التطهر بالماء

لقد بدأ الطبيب المصرى عمله غير مسلح بأية معلومات يركز عليها وطور ما استنتجه من ملاحظاته وتجاربه إلى أن جمع حصيلة علمية لا يستهان بها هى الركيزة الأساسية للعديد من المعلومات الطبية وتطبيقاتها فيما بعد، إنه الإنسان وقدراته المسخرة لخدمة الإنسانية.

ولم يلجأ الطبيب للعلاج فقط، بل وضع أسسا وقائية هامة يتبعها الجميع لتفادى الأمراض منذ البداية وتتلخص ببساطة فى التطهر والاعتسال بالماء ونزع الشعر عن الجسد لتفادى التصاق الحشرات بالجلد واتباع نظام غذائى معين والصوم عند الضرورة والامتناع عن بعض الأطعمة أحيانا، وكلها إجراءات وقائية للمحافظة على الصحة العامة رفعت من قيمة الطبيب العلمية.

ولم يقتصر علاج الطبيب على البشر

فقط، بل امتد للحيوان وظهر الطبيب البيطرى للعناية بالحيوان وعلاجه عند الضرورة، فقد كان للحيوان مكانته لدى إنسان هذا الزمان الذى احترم كل معطيات الطبيعة وقدرها حق قدرها. وقد اهتمت الإدارة الحكومية لمصر آنذاك بتنظيم عمل الطبيب الذى اعتبر من صفوة العاملين بالدولة على نفس الدرجة من الأهمية مثل المحارب والكاهن وكبار رجال الدولة. وانتشرت

قدرات الطبيب المصرى خارج مصر فكان يستقطب لعلاج عليه القوم من الدول الأخرى، وكان الأطباء الملكيون هم كبار الأطباء الذين يتولون مهمة نشر العلوم الطبية لدى الطبيب المتدرب. وتجزئة مهمة الطبيب وجعل كل واحد منهم متخصصا فى مجاله أعطت الفرصة للإبداع فى هذا المجال وتوجيه القدرات لعلاج الجزء الذى يتخصص فيه الطبيب، فظهر الطبيب الكفاء للعيون وآخر لأمراض النساء وآخر للأذن والحنجرة، والجهاز الهضمى... إلخ وهى التخصصات التى مازالت تسيطر على العلوم الطبية الحديثة على المستوى الإنسانى العالمى، ولكن طبيب القصر تخصص فى كتابة النصوص الطبية كنموذج يحتذى به الطبيب الممارس. السونو، باعتبار أن التطبيب من واجبات الملك الذى ينوب عنه كبير الأطباء للقصر الملكى.



مجموعة من المصريين
الأصحاء يؤدون عملهم

ويذكر ديودور الصقلى فى هذا المجال: «يتبع الأطباء تعليمات كتابية صارمة منقولة عن عدد كبير من الأطباء القدامى المشهورين».

وتمتع الأطباء بوضع اجتماعى عال وكانت مخصصات الدولة لهم من الطعام والملبس توزع طبقا للتسلسل الوظيفى العادل لضمان علاج العامة والعاملين مجانا.

والوثائق الطبية المختلفة والمتعددة هى نتاج ما دون داخل المعاهد الطبية أو بيت الحياة، وتذكر بردية إبيرز: «يمارس السونو عمله لدى العامة ويستقى معلوماته من الكتب ومن ممارساته العملية».

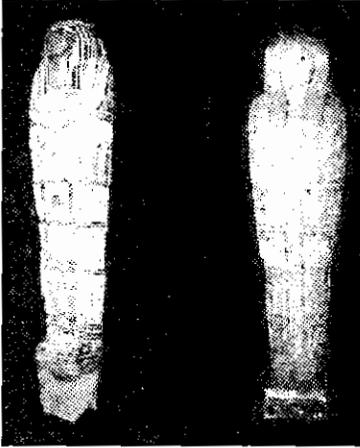
أما الوايو، فهم طبقة الكهنة الملحقين إما بسخمت أو تحوت، فهم يعالجون الصفوة، وتتشكل رعايتهم المرضية بالعقيدة، فهم يستقون قدراتهم من الآلهة، طبقا

للمفهوم السائد، وهنا يمتزج العلم والإيمان معا. أما الساو فهو يناضل ضد الأمراض المستعصية المجهولة المصدر والتى تهاجم الإنسان ولم يتبين الأقدمون علاجا شافيا لها. يتولى الساو أيضا علاج لدغات الثعالب والعقرب، ويلجأ للأوراد والتعاويذ للعلاج أحيانا. ويهتم الجميع باختلاف مواقعهم الوظيفية بالحالة الصحية العامة للفرد، فنشر الأطباء الأساليب الصحية السليمة التى تنحصر فى الاغتسال والتطهر وتنقية مياه الشرب، ونشر عملية الطهارة بين الرجال، وعدم الإفراط فى الطعام والصيام أحيانا والامتناع عن تناول بعض الأطعمة أحيانا أخرى، والعديد من الوسائل للحفاظ على الصحة وتفادى الأمراض.

واعتقد الطبيب المصرى القديم أن الأوعية الدموية هى التى توزع المادة المحدثه للألم أو أوخذو، فكانت مهمة الطبيب وصف التركيبات العلاجية المختلفة للقضاء على هذه المادة ومنع انتشارها عبر الأوعية.

ومن أهم ما ركز عليه الطبيب المصرى فى منع الأمراض قبل حدوثها طرق الوقاية من الأوذو عن طريق النظافة المستمرة للجهاز الهضمى والأمعاء والقضاء على هذه المواد الضارة ومنعها من التجلط داخل الدم والتسبب فيما يعرف حديثا بالتسمم الدموى واعتبر الطبيب أن كثرة الطعام من مسببات الأمراض، وهذا ما أكده العلم الحديث، فقد اعتقد المصرى القديم أن عملية الهضم تحول فائض الطعام إلى بول وبراز، ويؤدى سوء الهضم إلى توالد إفراز يحدث الأمراض المختلفة التى تنتقل عن طريق الأوعية.

ويعد اهتمام الطبيب المصرى خلال الأزمنة المختلفة اهتماما علميا سليما، فقد تتبع من خلال أسلوب منهجى سليم خطوات المرض وتطوراته المتعددة وحاول إيجاد دواء شافيا لكل مرحلة. ونجح فى كثير من الأحيان فى الوصول إليه ودون الحالات المستعصية كحماولة لدراستها والتعمق فيها وإيجاد العلاج المناسب لها بقدر الإمكان. ويمر فحص المريض بنفس الخطوات التى تتم الآن، إلا أن المصرى كان يركز فى سؤاله على النواحي الاجتماعية والنفسية للمريض، بخلاف سؤاله عن الأعراض المرضية، حتى يصبح علاجه متكاملا، وهذا لا يتوفر فى الطب الآن إلا نادرا بالرغم من أهميته.



ويبدأ الطبيب بمعرفة الأعراض التى يشكو منها المريض ويركز عليها، فقد أظهر المصرى القديم اهتماما بالغا بالفرد، فلم يشرح جسده فقط، بل تخطى هذا إلى تحديد الجانب الروحى والمشاعر المحسوسة واللامرئية لدى الإنسان التى تمكن بجدارة من تحديدها، فتكلم عن الروح والنفس والظل والجسد... إلخ. ثم يبدأ فى تحسس الأماكن المختلفة من الجسم لعلمه ودرايته التامة بمواقع الأعضاء، فكان يتحسس منطقة البطن، ويتحسس الكسور ويبحث عن الأورام «هناك شرايين لكل جزء من الجسم» «إنه هناك حيث يتحدث القلب».

ومعرفة المصرى بالأوعية الدموية هى ما ذكر فى بردية إيسبرز، إذ يذكر وعائين فى مؤخرة الرأس واثنتين فى الجبين، وآخرين للعين، واثنتين للجفن، واثنتين للأنف وغيرهما للأذنين، وتصب هذه الأوعية فى القلب الذى اعتبره المصرى القديم مركز تجمع الأوعية.

وقد عرف المصري نوعين من الأوعية يختلفان في الوظائف والصفات، فهناك أوعية يمكن قياس النبض عن طريق تحسسها وترسل هذه الأوعية السوائل والهواء للأحشاء الداخلية، أما النوع الثاني، فهي القنوات التي تنتشر الأمراض بواسطتها داخل الجسم، وهذا الاختلاف الذى ذكره المصرى هو ما عرف بالشرابين والأوردة فى عصرنا الحالى «فإذا مرض بعنقه وضعف بصر عينيه، فقلل عنه إن ذلك بسبب استلام أوعية قفاه للمرض»، بردية إيبيرز «هناك وعاءان فى ذراعه فإذا مرض ذراعه...».

ومن هذا المنطلق بدأت المداواة والتطبيب الذى يركز أساسا على علاج ما يصيب الأوعية الدموية من أجسام خارجية تؤدى إلى الأمراض المتعددة.

وتتم المعرفة الطبية والخبرة بتناقلها من الطبيب الممارس إلى مساعده: «لقد سأله الفرعون عن أشياء عديدة، فأجاب عنها كلها... وكان كبير الأطباء يستشير حارسيز بن رعموز، ومات كبير الأطباء بعد بضعة أيام، فتم تعيين حارسيز بن رعموز كبيرا للأطباء ومنح كل ممتلكات كبير الأطباء...»، من الأدب المصرى القديم.

واعتبر المصرى القديم تحوت رمزا للطب، فهو أول من داوى عيني حورس طبقا للأسطورة وهو منشئ العلم والقراءة والكتابة وهذا ما حرص عليه الطبيب وهو تعلم القراءة والكتابة ثم النواحي الطبية المختلفة.

وعرف المصرى أن للكبد أربعة أوعية وينشأ المرض نتيجة لإفحامه بالدم طبقا لما ورد فى البرديات وهو تعبير مشابه لمعنى الاحتقان الحديث كما أورد د. حسن كمال.

وقيل أن الصمم نتيجة مرض وعائى وأن مرض المعدة له نفس الأسباب، وكذلك ألم الفخذ ومؤخرة الرأس، وكلها محاولات للطبيب المصرى لفهم مسببات الأمراض المختلفة كى يتمكن من العلاج. ولم يقتصر المرض على الأوعية فى التنقل ولكن كان الجهاز التنفسى أيضا أحد مصادره، والقنوات بخصائصها المتنوعة: القناة الدمعية، والغدد، والسائل المنوى، والعضلات.

لقد تمكن الطبيب المصرى من معرفة أسباب العديد من الأمراض وأوجد لها الدواء المناسب من خلال مصادر حيوانية أو نباتية أو بشرية أحيانا، وقد أثبت العلم فيما بعد فاعلية المواد المستعملة وإن بدت غريبة فى بعض الأحيان إلا أن المكونات الطبيعية لها خواصها الفعالة، ولكن من المؤكد أن الطبيب المصرى اتبع منهجا علميا وضعه نتيجة لفكره ومعرفته وخلاصة تجاربه وأورده فى مراجع وكتب وضعت تحت تصرف من امتهن الطب.

وقد أثبت الطبيب المصرى أنه باحث متمرس فى العلم انتقل بالطب من البدائية ليصبح ممارسة على كفاءة ودراية عالية بالعديد من النواحي المرضية والعلاجية ووضع بالتالى الأسس السليمة لعلم الطب والتطبيب والدواء.

ويمكن تحديد الهرم الوظيفي للطبيب الذى بدأ منذ الدولة القديمة بالسنو وهو الممارس العام الذى يداوى الطبقات العاملة بينما السنو بر يتولون مهمة علاج الملك وقاطنى القصر الملكى، يليه فى المرتبة الور سنو وهو المشرف على الطبقة السابقة، ثم الساه سنو وهو الطبيب المقتش الذى يتحقق من تطبيق التعليمات الطبية والذى يعلوه فى المرتبة كبير الأطباء وهو الايم رع سنو الذى يعلوه أيضا ملاحظ كبار الأطباء حر تب سنو.

وقد حمل بعض الأطباء لقب «أطباء موفدون للدول الأجنبية» وهم رهن طلب من ملك أجنبى من مصر يطلبهم لمداواته أو تطيبب أحد أفراد أسرته. وقد حظى الطبيب بمساعدة العديدين خلال ممارساته للتطبيب، فبخلاف مساعد الطبيب، هناك المرض، والمختص بالفائف أو المضمد، والمدلك، والحلاق، والمحنط، ومن يساعد الطبيب فى تحضير الأدوية... إلخ. ووجدت الكتب اللازمة لتدل وترشد كل فئة على كيفية أداء مهامها مثل كتاب التضميد وغيره.

والبرديات المكتشفة هى فى مجملها إرشادات للطبيب الممارس كى يتعرف بدقة على الحالات الماثلة بين يديه، ويوجه الطبيب المعلم بإرشاداته للدلائل المادية للتعرف على الأعراض، ثم تشخيص الحالة، ثم العلاج لهذه الحالة مع احتمالات التطور وما يؤدى له هذا التطور وكيفية مواجهته، فنجد على سبيل المثال فى حالة كسر تفتتى مضاعف بالجمجمة لا تصحبه أية إصابة ظاهرة، أن الجراح يناقش، وهذا سبق علمى، أثر إصابة المخ على الأطراف السفلى والعلاقة بالجانب المصاب من الجمجمة، وطبقا لرأى د. حسن كمال، فإن الجراح المصرى بدأ بهذا، التعرف على وظائف مراكز المخ، فقد ذكر حول العينين والشلل الخفيف بالرجل والقدم نتيجة للإصابة. أنه حدث فى نفس جانب الإصابة. وأنه حدثت إصابة عكسية سببت كسرا فى الجهة المقابلة لمكان الصدمة. ونتيجة لهذا الوضع، أعطى الطبيب الموجه انذارا بخطورة الحالة ونصح بالراحة.

وفى تطور لنفس الحالة، ذكر الطبيب فى البردية، بردية سميث، أن الجراح بعد فتح الجرح المصاب وظهور المخ، تيقن من استحالة العلاج، فلم يصف أى دواء، بل أكد أن علاجه هو: «جلوسه حتى يسترد لونه وحتى تعرف أنه وصل للنقطة الحاسمة».

وقد أكد Dr. Lockhart، أن الشلل الناتج عن إصابة الجمجمة بكسر تفتتى مضاعف، غالبا ما يحدث فى جانب الإصابة، ولكن حدوثه، طبقا لهذه الحالة المبينة فى البردية فى نفس جانب الإصابة، يؤكد وجود رد فعل عكسى نتيجة للإصابة أحدث الشلل فى نفس الجانب.

اتجه الطبيب، بصفة عامة وشاملة إلى العلم ودراسة الحالات المختلفة من هذا المنظور، فدرس الحقائق، ومنطق الأعراض، ثم استخلص العلاج، إما الدوائى وإما الجراحى، فوضع بذلك حجر الاساس فى العلوم الطبية التى غطى معظم مجالاتها باقتدار مقارنة بالزمن الذى عايشه.

وفى حالة إذا ما استعصى العلاج على الطبيب، كان يقوى من عزيمة المريض بالرقى وكانا يلجآن معا إلى القوى العليا طلبا للشفاء، ولكن هذا لم يمنع الطبيب المصرى من وضع أسس كتابية للأمراض والعلاجات المختلفة لم يستدل إلا على القليل منها.

فطبقا لفلافْيوس كليمنس، أحد مؤسسى مذهب من المذاهب المسيحية فى الإسكندرية، فإن الكهنة المصريين القدماء قاموا بتجميع المعلومات الطبية المختلفة فى ٢٢ مجلدا واحتوت ستة كتب على علوم التشريح والجراحة والطب النسائى والأدوية وخلافه فيما عرف بكتب هرميس التى ذكرها جاليان ولم يعثر على أى أثر لها فيما بعد.

□□□